

بناء المشاكلة

دراسة نماذج قرآنية

أ.د/ محمد موسوني . جامعة تلمسان

تحديد مصطلح المشاكلة:

أ- لغة : شكل¹: الشكل بالفتح, الشبه والمثل, و الجمع أشكال و شكولٌ. و أنشد أبو عبيد:

فلا تطلبا لي أيما إن طلبتما فإن الأيامي لسن لي بشكول

وقد تشاكل الشيطان و شاكل كل واحد منهما صاحبه، وفي فلان شبه من أبيه و شكل و أشكلة و شُكلة و شاكل و مشاكلة.

و قال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ (ص: 58).

قرأ الناس²: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ و قال الزجاج: من قرأ: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾، فأخرج عطف على قوله حميم و عَسَاقُ أي (و عذاب آخر من شكله) لأن معنى قوله: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أنواع.

والشكل المثل، تقول: هذا على شكل هذا أي مثاله. و فلان شكل فلان أي مثله في حالته. و يقال: هذا من شكل هذا أي من ضربه و نحوه. وهذا أشكل بهذا أي أشبه. و المشاكلة الموافقة، و التشاكل مثله.

فالمشاكلة في اللغة هي المماثلة، ولا فرق بينهما على ما ذكره اللغويون، و المثل أعم من الشكل لأنَّ شَكْلَ مَثَلٍ و ليس مثل شكلاً.

ب) الاصطلاح:

ما تحرّر في المصطلح عند علماء هذا الفن، فإنّ المشكلة هي ذكر الشيء كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ (الشورى: 40) فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة، و الأصل: وجزاء سيئة عقوبة مثلها.

و مثله قوله تعالى: ﴿...تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ...﴾ (المائدة: 116)، والأصل: تعلم ما في نفسي و لا أعلم ما عندك: فإنّ الحق تعالى و تقدّس لا يستعمل في حقّه لفظ النفس، إلّا أنّها استعملت هنا مشكلة لما تقدّم من لفظ النفس. فعدل عن هذا لأجل المشكلة الظاهرة.

و المشكلة عند السيوطي هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً³. فالأول ما وافق الآيات السابقة و كقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ...﴾ (آل عمران: 54)، وكقوله أيضاً: ﴿...إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ...﴾ (البقرة: 14-15)، فإطلاق المكر و الاستهزاء في جانب الباري تعالى إنّما هو لمشكلة ما معه.

أمّا مثال التقدير فيبرز في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ...﴾ (البقرة: 138)، أي تطهير الله، لأنّ الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمّونه المعمودية، ويقولون إنّ تطهير لهم، فعبر عن الإيمان بـ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ...﴾ للمشكلة بهذه القرينة⁴.

وتكلّم الزماني عن هذه الظاهرة في باب التجانس⁵ الذي يعدّ قسماً من أقسام البلاغة التي وضعها في كتابه، إذ إنّ تجانس البلاغة عنده هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة، والتجانس على وجهين: مزاجية و مناسبة. وما يعدّ مشكلة عنده هو الوجه الأول: حيث إنّ المزاجية تقع في الجزاء كقوله تعالى: ﴿...فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ...﴾ (البقرة: 194)، أي جازوه بما يستحق على طريق العدل، إلّا أنّه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار.

فجاء على مزاجية الكلام وحسن البيان. ومن ذلك: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ...﴾ (آل عمران: 54) إذ استعير الجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أنّ و بال المكر راجع عليهم ومختص بهم.

ومنه: ﴿...يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ...﴾ (النساء: 142), أي مجازيهم على خديعتهم.

والعرب تقول: **الجزء بالجزء**, و الأول ليس بجزء و إنما بمزاوجة الكلام.

و من هنا يتضح لنا أنّ المشكلة داخلية في باب التجنيس⁶ أين تتشاكل لفظتان في الخطّ واللفظ وتختلفان في المفهوم⁷.

و يعرف الباقلاني هذا اللون البلاغي بقوله: "ومّا يعدّونه من البديع المماثلة, وهو ضرب من الاستعمال سمّاه قدامة التمثيل..", ثمّ يشرح ذلك فيقول: "و ذلك أن يقصد الإشارة إليه"⁸, وقد نقل الباقلاني هذا التعريف عن قدامة بن جعفر: "ومن نعوت ائتلاف اللفظ و المعنى, التمثيل, وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدلّ على معنى آخر, وذلك المعنى الآخر و الكلام ينبئان عمّا أراد أن يشير إليه. هذا على أنّ المماثلة عند الجمهور غير التمثيل, إنّما مراعاة التوازن في جميع كلمات الفقرتين أو في أكثرهما في الوزن دون التقفية"⁹.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المشكلة لم تكن مصدر اهتمام البلاغيين فحسب, بل عرفها أيضا علماء الأصوات قديما و حديثا, وعالجوها تحت مسمّيات مختلفة أبرزها مصطلح المماثلة¹⁰ الحديث (Assimilation) الذي يقصد به تقارب صوت من صوت آخر بحيث يفقد إحدى صفاته الفارقة تحقيقا للانسجام الصوتي مع الصاد المطبقة في "الصوتي مع الصاد المطبقة في "اصطبر", أو تفقد صفة الهمس لتتحوّل إلى صوت مجهور و هو الدالّ لتحقيق الانسجام الصوتي مع الزاي المجهورة في "ازدجر". كما أنّ القدماء سمّوا المماثلة أحيانا بالإبدال¹¹, وأحيانا أخرى بالإدغام¹² كما سمّوها أيضا بالمضاربة¹³ حيناً وبالتقريب¹⁴ حيناً آخر, وهي عند ابن يعيش "التجانس" أو "التمائل" و سبب الإمالة قصد المناسبة لكسرة أو ياء.

I-البناء الصرفي للمشكلة:

و يشمل مواضيع صرفية كثيرة منها:

I-1-التذكير و التأنيث:

فلعلّ المشكلة و التناسب هما السبب في كون "النخل" مرّة مذكرا و أخرى مؤنثا, كما في قوله تعالى: ﴿...أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (القمر: 20), و قوله: ﴿...أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: 7). وقد قال أهل العربية أنّ "اسم الجنس" و "اسم الجمع" يندرجان في حكم التذكير كثيرا, وإن لم يكن هذا ممّا يؤيّده الاستقراء تأييدا تاما¹⁵, فقد جاء قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (ق : 10) حيث وصف النخل بـ « باسقات », صفة مؤنثة مجموعة ثمّ عاد الضمير عليها وهو مفرد مؤنث, وهذا شيء من خصائص لغة القرآن وما أفرغه الله فيها من الفوائد الحسان.

I-2- ترك التنوين:

إنّ في بعض الآيات ما يشعر بأنّ ترك التنوين قد يأتي لغرض التناسب, والمشكلة. قال ابن هشام: و قرئ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص: 1 - 2). كما قرئ: ﴿...وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ...﴾ (يس: 40) بترك التنوين في «أحد» و «سابق», ونصب النهار¹⁶.

ولم يشأ ابن هشام أنّ يفسر حذف التنوين بالتناسب كما بينا, بل ذهب إلى أنّ العلة التقاء الساكنين, وهو قليل.

وقد قاسه على قول أبي الأسود الدؤلي:

فألفيته غير مُسْتَعْتَبٍ ولا ذَاكر الله إلا قليل

قال ابن هشام: " أثر ذلك على حذفه للإضافة, لإدارة تماثل المتعاطفين في التنكير"¹⁷.

I-3-أبنية جموع التكسير:

ونحن نجتمع «أحمرهراء» نقول «حمر» ولكننا نصير إلى شيء آخر إن كان عينه ياء أو واو فنقول في «أبيض و بيضاء».

«بيض» فنكسر باء لمكان الياء في الكلمة, وكأنّ الوزن هو «فِعْلٌ», ومثل هذا القول في «أسود و سوداء» «سود» و الأصل «سودّ», و لمكان الضمّ بعد السين نتحوّل من الواو التي تشبه الأصوات

الساكنة إلى المدّ، فهو صوت نأتي إليه من الضّم بعد السنين، وليس هذا إلاّ لتحقيق المشكلة و التناسب¹⁸.

ومن أبنية الجمع المكسّر « فُعول » مثل "شهور" و "فعود" و "جثي" ولقد عرض لهذا الجمع الأخير ما عرض بسبب مشكلة الأصوات حتّى تحوّل إلى هذه الصيغة. فالأصل "فعول" بضم الفاء والعين، ولو أتبعنا "طريقة الصّرفين لقلنا إنّ الأصل « جُثُو » ثمّ كان إبدال الواو الأخيرة فصارت ياءً ثمّ أبدال واو المدّ ياء ثانية فصار « جثي ي »، ثمّ أبدلت ضمة الثاء كسرة للمناسبة، ثمّ تبعثها ضمة الجيم فصارت كسرة للمناسبة أيضا فصارت « جثيو » وبها قرئ: ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾ (مريم: 72).

I-4-زيادة الفعل المجرد:

مما هو معروف أنّ الأفعال في العربية تتنوّع إلى مجرّدة و مزيدة، لازمة و متعدّية، تامّة وناقصة و غيرها¹¹. وقد يأتي تحول الفعل المجرد على فعل مزيد لغرض المشكلة كمثّل قوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ (المدثر: 32-33). و"أدبر"²⁰ فعل مزيد بالهمزة بمعنى "دبّر" كقبل و أقبل، وقد حسنت زيادته ههنا مشكلة لما معه من رؤوس الآي.

I-5-صرف الاسم الممنوع من الصرف :

إن هو أتى مع أسماء مصروفة متتالية و ذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ (الإنسان: 04)، على قراءة تنوين « سلاسلًا ».

I-6-اللازدواج:

وهو أن يكون المتكلم بعد رعايته للأسجاع يجمع في أثناء القرائين لفظين متشابهين الوزن والروي، وذلك كقوله تعالى: ﴿...وَجِثُّكَ مِنْ سَبَا بَنِي يَاقِينَ ﴾ (النمل: 22).

II-البناء النحوي للمشكلة:

مما لا شكّ فيه أنّ الوصول إلى فهم لغة القرآن وبيان معانيه لا يتمّ إلاّ من خلال معرفة وجوه الإعراب، و ظاهرة المشكلة النحوية في كتاب الله كثيرة منها:

- قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ (البقرة: 138).
- نصبت الصبغة على تقدير: اتبعوا دين الله، أو على الإغراء أي الزموا دين الله²¹. و هي مصدر مؤكّد²² منتصب عن قوله: آمنا بالله.
- ولو رفعت الصبغة كان صوابا كما تقول العرب: جدك لا كذك، و جدك لا كذك. فمن رفع أراد: هي صبغة الله، هو جدك²³. والمعنى واحد في كلتا الحالتين و هو أنّ صبغة الله الإسلام وهي خير الصبغ.
- قال تعالى: ﴿...وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ...﴾ (البقرة: 194).
- فهذه الآية هي تعميم لحكم الله، ولذلك عطفت لتكون كالحة لما قبلها من قوله تعالى: ﴿...وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ...﴾ (البقرة: 191). و قوله تعالى: ﴿...الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ...﴾ (البقرة: 194)، فالجملة تدليل والواو اعتراضية.
- كما أنّ الإخبار عن الحرمات جاء بلفظ قصاص وهو إخبار بالمصدر للمبالغة²⁴.
- ﴿...فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ...﴾ (البقرة: 194).
- إذ يجوز أن تكون (من) شرطية و الباء غير زائدة بحيث يكون التقدير: (بعقوبة مماثلة لعدوانهم)، كما يجوز أن تكون زائدة مثل صفة لمصدر محذوف، أي (عدوانا مثل عدوانهم)²⁵، وذلك بأن يأخذ المرء بحقه ممن ظلمه بقدر مظلمته²⁶.
- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: 15).
- فالجملة لم تعطف على ما قبلها وكانت جوابا لسؤال مقدر، إذ من البديهي أن يسلم القارئ لهذه الأبيات بفكرة رواج حيلة المنافقين على المؤمنين، و ذلك لما تؤدّيه الجمل الاسمية من معان مؤكدة، كمثل قوله على لسان المنافقين: ﴿...إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ...﴾ (البقرة: 14).
- فكان الردّ عليهم في جملة استئنافية لتكون دليلا قاطعا على غاية الفحامة و الجزالة.
- و جيء في قوله بالفعل المضارع يستهزئ لإفادة حدوث الاستهزاء و تحدّده وقتا بعد وقت²⁷.
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ...﴾ (الفتح: 10).

هذه جملة مستأنفة مؤكدة بالحرف "إن" للاهتمام، والفعل فيها مضارع "يباعونك" لاستحضار حالة المباينة الجليلة لتكون كأتمها حاصلة في زمن نزول هذه الآية مع أتمها قد انقضت.

والحصر المفاد من "إنها" حصر الفعل في مفعوله؛ أي: لا يباعون إلا الله، و غرضه التأكيد²⁸.

- ﴿...وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا...﴾ (النمل: 50).

و سمي الله تأمر المشركين به مكرراً لأنه كان تدبير ضرر في خفاء، وأكد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر، وتنويهه بالتعظيم²⁹.

3- البناء الصوتي للمشاكاة:

العربية فريدة بين اللغات القديمة و الحديثة، أحسن بحسن أصواتها المعربون، فدرجوا على نمط من المشاكاة لوفرة الحسن و الجمال. فمن بديع كمال هذه اللغة القرآنية مثلاً إن جمهرة من القراء قرأوا: ﴿...سَلَسِلًا وَ أَغْلَالًا وَ سَعِيرًا﴾ (الانسان: 04)³⁰.

فإذا كان حق "سلاسل" ألا تتون³¹، وعدم تنوينها يوفر لها الحسن والجمال، ولم يشأ أهل العربية من النحاة و اللغويين أن يبحثوا في علّة عدم تنوين هذه الجموع التي أسموها بمنتهى الجموع واكتفوا بقولهم: إن بناء منتهى الجموع علّة بمنزلة علتين، والعلتان سبب يجب أن يتوفر في خلق الاسم من التنوين. و هذه المباني اتصفت بالطول، وبكثرة الأصوات، فقد تكون خمسة أصوات، أو ستة، و كثرة الأصوات مؤذنة بالكفاية، فليس من الحسن أن يزداد فيها نون أخرى، غير أنّ هذه الزيادة وجبت من أجل أن يتم الانسجام و التشابه الذي عبّر عنه بالتناسب أو المشاكاة³².

والمشاكاة - كضرب من الاستعمال - قد استحسنت عند العرب ولو تجاوزت الحدود فخالفت بناء أو جارت على قاعدة نحوية، أو ابتعدت عما ألف المعربون في نظام الجملة العربية. والحديث عنها في المجال الصوتي هو الحديث عن الفواصل القرآنية³³. فمما يوقر التشاكل والتناسب في هذه اللغة القرآنية هو تلك المراعاة الإلهية لنظام الفواصل الذي يبدو لنا من خلال الحالات التالية :

3-1- الالتزام بالفواصل القرآنية:

نجد في سورة الفاتحة من حسن النظام و بديع التناسب في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة) ³⁷.

فالميم والنون ³⁴ قد توزعا هذه الآيات البيّنات، وجعل منها قطعة بالغة في الحسن، مستوفية في نظمها و بنائها، ولا يمكن أن نجد هذا في المأنوس من فرائد الشعر، قال جلّ وعلا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾. أنّ لغة الدعاء ينبغي لها أن تشحن بمادة عاطفية، فجاء قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وانتهت الآية بـ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، وكانت التّون في هذا الجمع المذكر نهاية جميلة بعد أنّ وصف هذا الموصوف العليّ العظيم بقوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، فرى أنّ في قوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، فائدة في توفير التناسب في هذا التقسيم البديع، ثمّ إن الحسن لم يتمّ بطريقة السجع، ولكنه إحاء بين صوتين التّأما في العربية التّأما عجيبياً ³⁵.

واللغوّيون لم يفظنوا لمادّة الإبدال التي تقع في الميم و النّون ، ولم يقفوا على السرّ في ذلك، فقد تمّ هذا التناسب في هاتين الآيتين بعيدا عن السجع ، ثمّ جاءت الآية الثالثة ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فتمّ هذا التناسب من التّون إلى الميم إلى التّون ثانية ³⁶.

وقد تجاوز إلزام الفواصل حيّز الصوت الواحد إلى صوتين ، توخّيا للمشكلة المطلوبة التي يتمّ بها التناسب البديع ، كقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى : 9-10).

فالمشكلة ههنا تجاوزت الرّاء في الآيتين إلى الهاء السابقة للرّاء ، و في هذا ذهاب إلى الحسن ³⁷.

وقد يتوفر في الآيات أن يلتزم حرف زيادة على حرف الفاصلة ، كما يلتزم البناء أو ما في وزنه أو ما هو قريب منه ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ * الْجَوَارِ الْكُنُفِ ﴾ (التكوير : 15-16).

فالنون المشدّدة التزمت بعد الفاصلة السّين ، ثمّ إنّ البناء من أبنية جموع التكسير. ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مُّسْتُورٍ ﴾ (الطور : 1-2) ، وقد أدى هذا إلى حفظ الوزن وتوافق الأصوات ³⁸.

وقد يكون للكلمة في العربية وجهان من حيث بناؤها ، ولكنها تأتي على وجه من هذين الوجهين دون الآخر ؛ مراعاة للفواصل.

ومن هنا جاءت كلمة « رَشَدَ » بفتحتين و لم تأت بالوجه الآخر و هو الضمّ و السكون، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا... ﴾ (الجنّ : 14). وفي قوله تعالى : ﴿ ...وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف : 10).

وإنما التزم وجه التحريك بفتحتين لما جاء في السورة من الفواصل التي فتح منها الوسط. وقرأ السبعة³⁹ ولم يقرأ أحد من القراء بالوجه الآخر مع أنّه وجه جائز صحيح، وذلك رعاية للتناسب والمشكلة.

وقد جاءت كلمة « الرُّشْدِ » معرّفة بالألف واللام فقرئت بضمّ الراء وسكون الشين، وذلك لأنّ الحاجة لا تدعو إلى مراعاة الفواصل فلما انتفى هذا السبب قرئ بالوجه المشار إليه كما قرأ حمزة والكسائي بالتحريك بفتحتين على الوجه الآخر⁴⁰.

ومثل هذا الإلتزام بوجه واحد مراعاة للمشكلة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ ﴾ (المسد: 1-2-3). إنّ "هب" الأولى بفتح الهاء أو سكونها⁴¹ ، ولكنها قرئت بالفتح، وقرئت "هب" الثانية بالفتح ليس غير رعاية للأولى. و ورد في تفسير الألوسي⁴² أنّ ابن محيصة وابن كثير قرآ ﴿أَبِي هَبٍ﴾ بسكون الهاء.

3-2- الحذف لمراعاة نظام الفواصل :

ومن أمثله ما جاء في سورة الرعد: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد : 9)، لقد جاءت ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ في الآية ، وهو منقوص حذف ياءه لتشاكل سائر الفواصل في الآيات. وقد قال العكبري إنّها حذفت للتشاكل ، ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها⁴².

ومثل هذا الضرب من المشاكلة و التناسب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (غافر : 32). فلم تأت كلمة (التنادي) و هو الصحيح المتطلب، وعدل عنه إلى ﴿ التَّنَادِ ﴾ بحذف الياء توخياً للمشاكلة بين الفواصل وهي : ﴿ الرِّشَادِ ﴾ ﴿ العبادِ ﴾ ﴿ التَّنَادِ ﴾ ﴿ هَادِ ﴾.

وقد تلجأ رعاية الفاصلة إلى حذف ما لا يحذف إلا لأداء غرض فيّ ، كالذي نجده في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه : 7) حيث حذف معلوم (أخفى) والتقدير - والله أعلم بتقديره - (وَأَخْفَى السِّرَّ عَنِ الْخَلْقِ)، على تقدير أخفى « فعلاً » وعلى تقدير اسما ، فالحذف هو الجار و المجاور ؛ أي : و أخفى منه ⁴³.

ومن الحذف ممّا لا يجوز حذفه إلا في مقام كهذا يستدعيه ضرب من المشاكلة أو التناسب ، قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ﴾ (الفجر : 1-5).

فقد حذفت ياء الفعل (يَسْرِ). وهو مجزوم بأداة جزم - ممّا يدلّ على أنّ رعاية الفواصل القائمة على الرّاء المكسرة طبيعية تأبى أن تطول الكسرة بعد الرّاء في الفعل. فيكون منها المدّ الطويل بالياء، وفي ذلك مراعاة لطول الفجر التي تضمّنتها الآيات، و لما كانت الياء تخلّ بهذا الطويل المقدّر المقيس حذفت مشاكلة و تناسبا ⁴⁴.

ومثل هذا الحذف، حذف ياء الإضافة في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِي ﴾ (القمر:14).

ومن الحذف الذي اقتضته مراعاة الفواصل وما تؤدّي إليه من الحسن، حذف المفعول به، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى : 1-3).

فالتقدير: (وما قلاك)، ولكنّ المفعول به قد حذف ليناسب (سجى). ومثل هذا الحذف ما ورد في سورة طه، في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ (طه: 3) ⁴⁵.

3-3-الزيادة⁴⁶:

إن كان الحذف يوقّر التناسب أو المشاكلة، فإنّ الزيادة أيضا ترمي إلى هذا الغرض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب:10)⁴⁷.

ومن هذه الزيادة المقصودة التي تؤدي إلى التناسب وإحسان البناء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب: 66-67).

وقد زيدت الألف في ﴿الرَّسُولَا﴾ و ﴿السَّبِيلَا﴾ لتناسب الفواصل السابقة و اللاحقة.

وكذلك الحال في زيادة هاء السكت في سورة الحاقة في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيه * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيه﴾ (الحاقة: 28-29) وفاء بالتناسب و الحسن⁴⁸.

3-4-التقديم و التأخير :

أسلوب تقديم بعض المواد التي حقها التأخير نط من البناء و التركيب تراعي فيه الفواصل ، فيتوقّر من الحسن ما لا يتوقّر لو كان التركيب و البناء على طبيعته.

ومن هنا جاء قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلَي رَجْعِهِ لَقَادِر * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق : 8-9) فتقديم الجار و المجرور ﴿عَلَي رَجْعِهِ﴾ وفر الحسن والبيان.

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿...إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولَا﴾ (الإسراء : 36)، قدّم الجار والمجرور ﴿عَنْهُ﴾ ليسلم البناء القائم على الفواصل المتماثلة⁴⁹.

3-5-الترقيق والتفخيم:

ومن الترفيق والتفخيم بسبب من المشكلة و التناسب ما حصل من ترفيق اللّام و تغليظها. فاللام من اسم « الله » جلّ ذكره مفخمة أبداً، إذ نقول: ﴿اللَّهُ رَبِّي﴾ (آل عمران: 51)، و قوله تعالى: ﴿...وَقَالَ اللَّهُ...﴾ (آل عمران: 55)، و قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (الصافات: 35). و لا تزال اللّام مفخمة إلّا أن يأتي قبلها كسرة، رجعت اللّام إلى التفخيم، حيث نقول: باسم الله، بالله، لله، فترقق اللام للكسرة التي قبلها⁵⁰.

وقد تفرّد "ورش" عن "نافع" بتفخيم اللّام لحرف الإطباق قبلها، و ذلك إذا كان قبل اللّام: طاء أو صاد أو ظاء، فالذي يفخّم نحو: ﴿...ظَلَمُوا...﴾ (البقرة: 59)، و ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ (البقرة: 114)، والصّلاة، ومصلّى، والطلاق، و طلقتم؛ قرأه ورش بالتفخيم ليعمل اللسان عملاً واحداً⁵¹.

وهذا كله من باب المشكلة التي يستدعيها قرب الصّوت من الصوت.

4-البناء البلاغي للمشكلة:

و لما كانت المشكلة من المحسنات البديعية، فقد أدخلت غالباً في باب التّجنيس، لما يظهر من مماثلة اللفظ في وجه من الوجوه، واختلاف معنويه.

قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا...﴾ (الشورى: 40)، إذ الأوّل ظلم و الثاني عدل ، وهما و إن اتفق لفظهما فقد اختلف معنهما⁵².

ومثل هذا في قوله تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمان : 60).

كما أنّها قد أرجعت من جهة أخرى إلى الاستعارة ، و لكن العلماء أغفلوا أن يسمّوها كذلك لخفاء وجه التشبيه فيها⁵³. فقد أخبر الله تعالى عباده أنّه مجازيهم جزاء الاستهزاء و معاقبهم عقوبة الخداع في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ...﴾ (البقرة : 15) ، وقوله : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ...﴾

(النساء : 142)، إطلاق الاستهزاء و الخداع على الله استعارة تمثيلية حسنتها المشكلة⁵⁴، إذ أخرج الله خبره عن جزائه إيّاهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ و إن اختلف المعنيان⁵⁵.

وفي قوله : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ (البقرة : 194) ؛ أي جازوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ، فجاء على مزاج الكلام لحسن البيان⁵⁶.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرًا اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 54) ؛ أي جزاهم على مكرهم. فاستعير الجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أنّ وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم⁵⁷.

ومثل هذا في قوله تعالى : ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا...﴾ (النمل : 50) ، فهذا المكر الذي أسند إلى اسم الجلالة هو مكر مجازي ، استعير فيه لفظ المكر لمبادرة الله في استئصال أهل صالح عليه السلام — وهم ثمود — قبل أن يهيموا إلى قتله. فشبه فعل الله بفعل الماكر في تأجيل فعل إلى وقت الحاجة مع عدم إشعار من يفعل به. والمراد بالمكر المسند إلى الجلالة هو ما دلّت عليه جملة : ﴿...إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النمل : 51)، وفي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل : 50) تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال⁵⁸.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق : 14-15) إن كيد الكافرين مستعمل في حقيقته ، و أما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة ، فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم. وهو استعارة تمثيلية حسنتها محسن المشكلة ، فشبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة كائدٍ يخفي إنزال ضرره⁵⁹ ، وقد سمى مجازاتهم كيداً منه للتجانس في اللفظ⁶⁰.

وقال أيضا : ﴿...فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ...﴾ (التوبة : 79).

إنَّ إسناده "سخر" إلى الله تعالى هو على سبيل المجاز الذي حسنته المشكلة ؛ والمعنى أنَّ الله عامل الذين يلمزون المطوعين في الصدقات معاملة تشبه سخرية الساهر ، على طريقة التمثيل ؛ وذلك بأن احتقرهم ولعنهم وقضى عليهم بالعذاب في الآخرة⁶¹.

ومثله قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِتْمَانًا يَبَايِعُونَ اللَّهَ...﴾ (الفتح : 10)، ففي الآية استعارة تصريحية، شبّهت فيها المعاهدة على الجهاد بالأنفس بدفع السلع مقابل الأموال، واستعير اسم المشبه به للمشبّه، واشتق من البيع "يبايعون" بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله⁶².

كما تظهر لنا المشكلة في نفس الآية قواه تعالى : ﴿...يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾ (الفتح 10)، وهي استعارة مكنية، شبه فيها إطلاع الله على مبايعتهم بملك وضع يده مع أيدي رعيته، و طوى ذكر المشبه، و رمز إليه بشيء من لوازمه هو اليد، أي أن الله شبه بالمبايع و كر اليد قرينة ههنا، وإسنادها لله تخيل، و في ذكرها مع أيدي الناس مشكلة⁶³ ، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ...﴾ (الزخرف: 55) أنه قد استعير لفظ: ﴿آسَفُونَا﴾ لمعنى عصونا للمشاغبة، و الله يستحيل عليه أن يتّصف بالأسف، كما يستحيل عليه أن يتّصف بالغضب على الحقيقة، فيؤول المعنى إلى أنَّ الله عاملهم كما يعامل السيد المأسوف عبدا أسفه، فلم يترك لرحمة سيده مسلكا⁶⁴.

وعلى غرار الآيات المذكورة سابقا، و التي ظهر فيها التماثل محققا بين لفظتين مختلفتين، فإن المشكلة قد وجدت لنفسها مقاما في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ...﴾ (البقرة: 138)؛ إذ الصبغة ههنا بمعنى الدّين، و إنما سمّي هذا الأخير صبغة استعارة و مجازا من حيث تظهر أعماله و سماته على المتدين، كما تظهر أثر الصبغ على الثوب⁶⁵.

ومثله قوله تعالى: ﴿... نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ...﴾ (التوبة : 67).

والله سبحانه لا ينسى، و المعنّين المنافقين نسوا الله، و أغفلوا تكاليف الشرع مما أمر به الله، فنسيهم الله بأن جازاهم بمثل فعلهم، عاملهم معاملة من نسيهم، بحرمانهم من لطفه رحمته و فضله في الدنيا و من الثواب في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿...الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا...﴾ (الجملة: 34).

و تلك إذن حكمة الله في كلامه المقدّر الموزون على قدر المعاني، و من نفذ إلى معنى كلام الله كان عارفاً. و عليه، فالدراسة اللغوية قد ساهمت في استنطاق الآيات السابقة و استنباط دلالاتها التي أثمرت عن فضل القرآن العظيم و حكمة منزلة العليم.

الهوامش

- 1- ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار الصادر، بيروت، 1968، ص: 356.
- 2- "آخر" هي قراءة أعمر و يعقوب، ينظر الفراء ج2 معاني القرآن، عالم الكتب، ط1، 1995، ص: 411.
- 3- السيوطي، الإتقان في علوم، تعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار الهدى، ط2، الجزائر، 1998، ص: 930.
- 4- المصدر نفسه، ص: 930.
- 5- الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط1 (د.ت)، ص: 92.
- 6- هو أن تجئ الكلمة بتجانس أخرى في بيت شعر و كلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها،
- ينظر عبد الله بن معتر، كتاب البديع، مكتبة المثنى ط1 (د.ت)، بغداد ن ص: 25
- 7- انظر ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، ج 2، ص: 294-295.
- 8- ينظر البقلاني، إعجاز القرآن، دار مكتبة الحياة ن ط1، (د.ت)، ص: 294-295.
- 9- ينظر المصدر نفسه، ص: 295.
- 10- ينظر أمانة بن مالك، رسالة دكتوراه، مصطلحات الدراسات الصوتية في التراث العربي، ص: 416.
- 11- وهو أن تقيم حرفاً مقام حرف، إما ضرورة و إما استحساناً، ينظر مولاي عبد الحفيظ طالبي، الإبدال في اللغة العربية، 1990، ص: 10.

- 12- (1) الإدغام الأكبر : هو وصل حرف ساكن بحرف مثله متحرك من غير الفصل بينهما بحركة أو وقف ، فيصير الحرفان لشدة اتصالهما كحرف واحد ، ينظر المصدر نفسه، ص: 211.
- (2) الإدغام الأصغر : هو تقريب الحرف من الحرف و إدناؤه منه من غير إدغام ، ينظر أبا عثمان بن جني ، الخصائص ، ج2 ندر الكتاب العربي ، ص : 141 .
- 13 - ومعناه أن تشرب الصاد شيئاً من صوت الزاي فتصير بين بين ، ينظر ماجستير مولاي عبد الحفيظ طالبي ، الإبدال في اللغة العربية ، ص : 96.
- 14 - هو دنو الصوت بمخرجه من مخرج صوت آخر ، فتكون العلاقة بينهما هي قرب المخرج ، أو تقارب صفات صوتين مع اختلاف مخرجيهما ن ينظر عبد الصبور شاهين ، أثر القراءات في الأ صوات و النحو العربي لأبي عمرو بن العلاء ، مكتبة الخانجي ، ط1 ، القاهرة ، 1987، ص : 244.
- 15 - ابن هشام، معني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج2 ، المكتبة العصرية ، ط1 ، 1995 ، بيروت ، ص : 741.
- 16 - ينظر المصدر السابق ، ج2 ، ص : 741 .
- 17 - نقلا عن الأنترنت : المكتبة الإسلامية ، د . إبراهيم السامرائي ، من وحي القرآن ، بديع القرآن ، ص : 129 – 147 .
- 18 - ينظر مولاي عبد الحفيظ طالبي، دروس في الصرف العربي ، ج1، دار الغرب للنشر و التوزيع، 2002 ، ص: 61 .
- 19 - ينظر تفسير الألوسي ، ج 29 ، ص: 130 .
- 20 - ينظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج2 ، دار إحياء التراث العربي ، ط1 ، 1985 ، بيروت ، ص: 144.
- 21 - ينظر التّسفي ، مدارك التّريل و حقائق التأويل ، ج1 ، دار القلم ، ط1 ، 1989، تونس ، ص : 111 .
- 22 - ينظر الفراء، معاني القرآن ، ج1 ، عالم الكتب ، ط1 ، 1955 ، بيروت ، ص: 83 .
- 23 - ينظر الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج2 ، الدار التونسية للنشر ، ط1 ، 1984 ، تونس ، ص : 211 .
- 24 - العكبري ، إملأ ما من به الرحمان ، ج (1-2) ، دار الفكر للطباعة و النشر ، ط1 ، 1993 ، ص: 92 .
- 25 - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج2 ، ص: 360 .
- 26 - الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج1 ، ص : 293 – 294 .
- 27 - المصدر نفسه ، ج25 ، ص : 157 .
- 28 - نفسه ، ج18 ، ص : 284 .

- 29 - نقلا عن الأنترنت: المكتبة الإسلامية ، د.إبراهيم السامرائي، من وحي القرآن، بديع القرآن، ص : 147-129.
- 30- القراءة بترك التنوين ، ينظر العكبري ، إملاء ما من به الرحمان ، ج (1-2) ، ص : 571 .
- 31 - نقلا عن الأنترنت: بديع القرآن ، ص : 147 - 129.
- 32- الفواصل القرآنية : حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إلهام المعاني ، و الفواصل بلاغة، انظر الرماني، النكت في إعجاز القرآن ، ص : 90 .
- 33- نقلا عن الأنترنت : بديع القرآن، ص : 174-129 .
- 34 - النون و الميم : صونان يتخذان بحرهما في الخيشوم ، و تشتركان في صفتي " اللغة و التوسط " ، ينظر إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو ، ط4 ، 1971 ، مصر ص : 73 .
- 35- المصدر السابق للأنترنت ، ص : 73 .
- 36 - نقلا عن الأنترنت : بديع القرآن ، ص : 129 -147.
- 37- نقلا عن الأنترنت : د. إبراهيم السامرائي ، بديع القرآن ، ص : 129 - 147.
- 38- المصدر نفسه ، ص : 129 - 147.
- 39 - القراءة السبعة: نافع، ابن كثير، أبو عمرو بن العلاء، ابن عامر، عاصم، حمزة، و الكسائي . راجع الأنصاري، كتاب الإقناع في القراءات السبع، تحقيق: الشيخ أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1999م.
- 40- نقلا عن مصدر الأنترنت نفسه.
- 41- ينظر العكبري ، إملاء مامن به الرحمان ، ص : 592 .
- 42- ينظر الألوسي ، روح المعاني ، ج30 ، ص : 262.
- 43- ينظر العكبري ، المرجع السابق ، ص : 358 .
- 44- المصدر نفسه ، ص : 415.
- 45- نقلا عن الأنترنت : د. إبراهيم السامرائي ، بديع القرآن ، ص : 129 -147.
- 46- ينظر المصدر السابق ، ص : 129 -147.
- 47- نفسه.
- 48- الطنونا : كتبت بالألف في المصاحف .ووجه أنه رأس آية فشبهه بأواخر الآيات المطلقة لتتأخر رؤوس الآي . انظر العكبري ، إملاء مامن به الرحمان ، ص : 487 .

- 49- نقلا عن الأنترنت : د. إبراهيم السامرائي ، بديع القرآن ، ص : 129 -147.
- 50- المصدر السابق ، ص : 129 -147.
- 51- الزمخشري ، الكشف ، ج 1 ، دار الكتاب العربي ، ط1 ، دت ، بيروت ، ص : 219.
- 52- نفسه ، 1/ 219 .
- 53- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج1 ، دار الأندلس للطباعة و النشر ، ط3 ، 1983 ، ص : 90 .
- 54- الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج2 ، ص : 294 .
- 55- المصدر نفسه ، ج5 ، ص : 239 .
- 56- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج2 ، ص : 90 .
- 57- الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ص : 91.
- 58- نفسه ، ص : 91 .
- 59- الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج18 ، ص : 284 .
- 60- ينظر المصدر السابق ، ج30 ص : 268 .
- 61- ينظر تفسير المراغي ، ج30 ، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي ، ط2 ، 1953 ، مصر ، ص : 118 .
- 62- الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج10 ص : 255 .
- 63- ينظر وهبة الزحيلي ، التفسير المنير ، ج26 ، دار الفكر المعاصر ، ط1 ، 1991 ، بيروت ، ص : 160
- 64- نفسه ، ج26 ، ص : 160.
- 65- وهبة الزحيلي ، تفسير المنير ج10 ، ص 293-294.